

نساء خالدات

ألف الكتاب الاستاذ أنور أحمد

وأهداه إلى «المرأة العربية» المعاصرة التي حطمت أغلالها، وانطلقت تشارك بعمق وإيجابية في صنع الحياة.

والحقيقة أنه بدوره كتب هذا الكتاب بعمق وإيجابية وأسلوب شيق مشبع بروح الود والتقدير للمرأة العربية على أى أرض من وطننا العربى الكبير.

ومن هؤلاء بلقيس - ذات النطاقين - رينوييا - فارسة الصحراء - صبيحة ملكة قرطبة - ست الملك - شجرة الدر - كليوباترا - سميراميس

من هذا الفارس؟

إنها صبيحة خالد بن الوليد وهو يشير الى فارس طويل، عليه ثياب سود، قد حزم وسطه بعمامة خضراء، وسحبها على صدره ومن ورائه.. واندفع بجواره فمرق به كالشهاب وتقدم طليعة جيوش المسلمين.

ونظر أصحاب القائد العربى فرأوا ذلك الفارس المجهول يلقي بنفسه على عساكر الروم، ثم يخرج من بين صفوفهم سيفه مخضب بالدماء ثم يعود فيكر عليهم ويخترق جموعهم معرضا نفسه للهلاك.

وعاد خالد يسأل عن الفارس فقال له من يحيط به من قواده:

والله ما ندرى أيها الأمير، فقد تلثم فما يظهر منه إلا حدق عينيه!

وتصايح المسلمون فى الصفوف الخلفية، وقد أخذهم العجب من صنيع الفارس المثلث:

- ما هذه الحملات إلا لخالد، ليس هذا الفارس إلا خالد بن الوليد

وقال «رافع بن عميرة».

ومن يكون غير سيف الله المسلول؟

ولكنه لم يلبث أن رأى خالدا يشرف عليه فى طليعة الجيش فهمز جواده حتى أدركه وقال له:
من الفارس الذى تقدم أمامك أيها الأمير، فلقد بذل نفسه ومهجته؟
فقال خالد:

- والله انى لأشد منكم انكارا له.. ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله.
قال رافع:

أيها الأمير، إنه منغمس فى عسكر الروم يطعن يمينا وشمالا
وإنى لأخاف أن يتكاثر عليه فيفتكوا به
فصاح «خالد» بالناس

- معاشر المسلمين، احملوا جميعا وساعدوا المدافع عن دين الله.
وهجمت جيوش العرب بقيادة «خالد» على جنود الروم فزعزعت كتائبهم، وكان الفارس
الملثم يخرج من قلب جيش الروم كأنه شعلة نار والخييل فى إثره.. وكلما لحقت به الروم، كر،
عليهم وجندل منهم!
وأدركه رافع فصاح به

- لله درك من فارس بذل مهجته فى سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء! اكشف لنا عن
اسمك وارفع لثامك.

فلم يجبه الفارس، ومال عنه دون أن يخاطبه، وعاد فانغمس فى جند الروم.
ولكن «رافع» لم يئس منه، فقد انتهز فرصة بروزه مرة أخرى وأقبل عليه فأمسك بزمام
جواده وقال له:

- أيها الرجل الكريم، أميرنا يخاطبك وأنت تعرض عنه! اظهر لنا اسمك نزداد تعظيما..
ولكن الفارس الغامض لم يرد عليه جوابا، وكان خالد بن الوليد يسمع ويرى، فسار إليه
بتفسه وقال له:

- ويحك! لقد شغلت بفعلك قلبى وقلوب الناس، فقل لى من أنت؟

فقال الفارس من تحت لثامه:

- اننى أيتها الأمير لم أعرض عنك إلا حياء منك، لأنك أمير جليل، وأنا من ذوات الخدورا وبنات الستور!

فصاح خالد وقد امتلأت نفسه بالدهشة

-- من أنت يرحمك الله؟

- أنا «خولة بنت الأزور» كنت مع بنات العرب فأثنانى الساعى بأن «ضرارا» أخى أسير، فركبت وفعلت ما رأيت.

عندما تربص الروم للاسلام وحاولوا جمع حشودهم لحربه، لم يملك العرب إلا أن يأخذوا المبادأة باعتبار الهجوم خير وسيلة للدفاع.. فخرجت جموعهم لملاقاة الروم.. تقوم الرجال ولم تنكس النساء من سقيا وطعام وأهم من هذا عندى أنهن كن يقمن بحث الرجال على الثبات والايمان بالنصر..

ان الجيوش الحديثة تعنى عناية فائقة بالروح المعنوية وشد أزر الجنود فى المعركة وقد قامت المرأة العربية بهذا الدور حبة واحتسابا بلا تلقين أو تخديم مما يضاعف قيمة العمل..

كان فى جيش خالد الذى نهى إلى الشام «ضرار بن الأزور» وكانت أخته خولة تسير فى مؤخرة الجيش مع نساء المجاهدين سواء كن زوجات أو أخوات.

وكانت خولة، طرازا وحدها.. كانت جميلة، شاعرة فارسه تلعب بالسيف والرمح فتغلب الرجال.. فى عصر يعتد بالبطولة والأبطال.. كانت القبيلة تهنا إذا ظهر فيها أحد اثنين: شاعر أو فارس.. فان تظهر شاعرة فارسه فتلك قمة.. وأن تكون الشاعرة الفارسه جميلة أيضا فالظاهرة هنا تخلب الألباب..

كم بين العربيات من بطولات.. نسيهن التاريخ ومن حقهن التنويه بل التمجيد.

مالت الشمس الى المغيب فأمر جنوده بالكف عن القتال بعد أن أيقن البطل من النصر الذى من الله به عليه.. لقد أظهره الله على عدوه فتقهقرت فلوله متجهة إلى الشمال.

وشاهد الحراس العرب شبحاً متشحاً بالسواد يمشى بين القتلى ثم ينحنى عليها بين الحين والحين

وتقدم حارسان من الشبح فسمعا صوته باكياً يقول:

يا ابن أُمي ليت شعري في أي بيداء طرحوك؟ أم بأي سنان طعنوك، أم بأي حسام قتلوك؟ وعرف صوتها، أحدهما فقال لزميله:

- هذه ولا شك خوله بنت الأزور تبحث عن أخيها ضرار بين القتلى

- لله درها ما كان أشجعها اليوم! رأيت كيف قال لها خالد عندما بهرتة: (سنحمل جميعاً ونرجو الله أن نصل إلى أخيك فنفكه).

ثم أمر الجيش بالهجوم.

والتقى الجمعان.. وهجم خالد في طليعة الجيش وهجمت خوله.. ولقد عظم على الروم ما نزل بهم من الفارس المثلث حتى قال قائلهم:

ان كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فمالنا بهم من طاقة

وما يدري انها فارسه.. وحسنا أنه لم يدر وإلا صعق.

وصفها أحد جنود المسلمين بقوله:

والله لقد رأيتهما تحمل على عساكر الروم كأنها النار الحارقة فتفرج أمامها الصفوف وهي تجول يمينا ويسارا.. وتطلب أخاها فلا ترى له أثرا.. حتى مال النهار واقترب الجيشان.. فتعاود البكاء وتنفجج قائلة:

- يا أخي إنى لك الفداء! ليت شعري أين أنت الآن؟ هل أنت أسير في أيدي الأعداء.. أو لحقت بأبيك المقتول بين يدي رسول الله، فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء.

وأقبل خالد بن الوليد يتفقد ساحة المعركة فأفضى إليه الحارسان نبأ الفتاة.. فتقدم إليها يقول:

- إنه ليشق علينا ما تجددين على أخيك يا خوله.

فردت وهي تكفكف دموعها..

- حفظك الله أيها الأمير.. والله لقد ترك في قلبي جمرة لا يخمدها لهيبها ولا ينطفئها سعيها! وما أدري أحي هو فأرجوه، أو ميت فأبكيه.

قال خالد: بل حي ياذن الله

وفي هذه اللحظة أقبل أحد الحراس مسرعا يقول:

- أيها الأمير.. إنني أرى كوكبة من فرسان الروم تتقدم نحونا

فقال خالد: تأهبوا للقائهم

وأقبل جماعة من الفرسان حتى إذا بلغوا القائد العربي، خالد بن الوليد، ترجلوا وألقوا سيوفهم طالبين الأمان فسألهم خالد عن خبرهم فقالوا انهم من (حمص) وأنهم يسألونه الصلح باسم أهلها متعهدين بأداء الجزية المطلوبة والمفروضة فرد خالد

- نحن لا نصالحكم هنا.. ولكن إذا وصلت الى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى.. إذا كان لكم فيه أرب.. وعليكم أن تبقوا معنا إلى أن يقضى الله ما هو قاض.

ثم سألهم عن ضرار بن الأزور فعلم من أحدهم أنه وقع في الأسر بعد أن قتل من الروم عددا كبيرا وأنه في طريقه الى حمص يحرسه مائه حارس.

ثم التفت خالد بن الوليد الى رافع بن عميره وقال

- أريد أن تأخذ من تحب من الفرسان وتسرع خلف القوم على أن تلحق بهم فتخلص ضرارا منهم.

وصعد خالد بالأمر. وعلمت خوله فتقلدت سلاحها وأتت جوادها وجاءت الى خالد بن الوليد وقالت له:

- أيها الأمير سألتك بالظاهر المطهر، محمد سيد البشر أن ترسلني مع من أرسلت فقال لها خالد:

- لقد أوغل الليل ياخوله وأخشى أن يصيبك سوء

وقال «رافع»

- نحن نكفيها مشقة السرى وأخطار الطريق فلتقم موفوره.

ونرد لها أخاها بإذن الله.

فهتفت خوله بالأمر في لهفة الرجاء:

- بحق من أظهرك على أعدائك، وجعل النصر في ركابك، وإلا ما أذنت لى بالسير معهم!
لا تدعنى أيها الأمير انتظر هنا فيهلكنى الأسى فتبسم خالد من قولها وتمتم قائلا:

- لا نامت أعين الجبناء، خذاها معك يارافع، فالذى نفسى بيده أنها لتعدل فى شجاعتها
عشرة رجال!

إنه يذكرنى هنا بالأستاذ العقاد حين كتب عن موضوع شهادة المرأة امام القضاء وبين الحكمة
فيها ثم قال: (ومن النساء من تعدل شهادتها آلاف الرجال).

انطلق «رافع» ومن معه من الرجال فى طريق حمص، وسارت خوله فى إثرهم لا تختلط بهم
ولكنها تركب معهم غير بعيد.

ونصب رافع كميناً لفرسان الروم فى الطريق حتى اذا لاح ركبهم، وكان بينهم «ضرار» يردد
بصوت مسموع:

ألا أبلغوا قومى وخولة أننى أسير رهين موثق اليد بالقييد

سمعت «خوله» وعرفت صوته، فلم تتمالك نفسها أن صاحت من مكمنها:
قد أجاب الله دعاءك، وسمع رجاءك..

ثم لكزت جوادها فانطلق بها، وانقضت على القوم كما تنقض الصاعقة وهى نصيح:

الله أكبر الله أكبر

وتبعها «رافع» ومن معه وهم يهللون ويكبرون، وما هى إلا جولة أو جولتان حتى كان فرسان
الروم بين قتيل وجريح، وهارب مذعور أطلق ساقه للريح..

والبدر شاهد عليها كما يقول شاعرنا رامى فى: (هلت ليالى القمر)..

واكتست الصحراء حلة من الضياء كأنها تبارك أفراس اللقاء..

عاد ضرار ولم تنته القصة بعد

لا أعنى لها بقية ولكنى أقصد وراءها «فلاش باك» إذ قال الحارس الرومانى لزميله

- لم أر كاليوم نساء أقوى من الرجال!

فقال زميله متهمكماً!

- ولم أر كاليوم رجالاً أضعف من النساء!

قال الأول:

- ويحك أتعنى جنودنا فى الميدان؟

- ألم تر كيف كانوا يفرون مذعورين امام العرب؟ هل يسعدك هذا التقهقر الطويل والهزائم المتصلة المنكرة فى صحراء الشام؟ إن قومنا يفرون امام الرجال ثم يستأسدون امام النساء ثم يسوقهن سبايا.

وهل تظن مع هذا أن سوقهن سبايا أمر سهل؟ إن مقاومتهن وهن عزل من كل سلاح لأمر يثير العجب.. والاعجاب. هل تذكر واقعة (صحورا)؟ والخيمة الكبيرة التى ضمت الأسيرات العرييات؟

كانت خوله بنت الأزور بين الأسيرات.. دهمتها جيوش الروم وهى منعزلة مع النساء وأحاط فرساننا بالخيمة فساقوها مع غيرها من النساء إلى خيام أخرى فى مؤخرة الجيش ووضعوا عليه من حراسة قوية من جنود الروم.

وظن الروم أن الزمام فى أيديهم وأن الحلقة أحكمت حول الأسيرات..

وفجر الحصار الباغى غضب خوله فصاحت فى رفيقات الخيمة المحاصرة:

يابنات حمير وبقية تبع أترضين لأنفسكن أو شاب الروم؟

قالت سلمة بنت النعمان:

- لا والله لا نرضى ذلك أبداً

- واجتمع حول، خوله، النساء فقالت لهن:

- أين شجاعتك، والله إنى لأرى القتل أهون عليكين مما ينتظركن من خدم الروم..

فقال «عفراء بنت غفار»

- صدقت والله ولكن السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت ولكن مرة أخرى أين هو السيف.. لقد أخذونا على غرة.. فقالت خوله:

- نأخذ أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللثام فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة وما النصر إلا من عند الله ولم تلبث «خوله» أن تناولت عموداً من أعمدة الخيمة وتبعته النساء.

وصاحت «خوله» مرة أخرى وكأنها القائد فى المعركة:

- لا ينفك بعضكن عن بعض وكن كالحلقة الدائرة ثم عليكن بتحطيم رماح القوم واكرن سيوفهم بأعمدة الخيام.

واندفعت «خوله» إلى خارج الخيمة وحولها باقى النساء.. فأسرع اليهن الحراس.. وكانت «خوله» تحمل عموداً طويلاً

- دفعته فى صدر الحارس وكسرت به سيفه.. وفعل مثلها النساء.. ودارت بينهن وبين الحراس من جنود الروم معركة شديدة تخلصت النساء بها من الأسر وانطلقن فى الصحراء مهللات نحو مضارب الجيش العربى وأمامهن شابه فارعة الطول تلوح برفحتها فى الهواء مزهوة بالنصر المبين..

فهل يذكر التاريخ؟ ولعل تذكر الأمة العربية بطولات بناتها ونسائها خاصة فى هذه الأيام التى لفحنا فيها الهجير..

ليس الرجال وحدهم فى الميدان

بل النساء

بل حتى أطفال الحجارة.